الاكتشافات الجغرافية

في العصر الوسيط

كلمة اكتشافات جمع اكتشاف وهي من فعل اكتشف الذي يعني الكشف أو التعريف بالشيء لأول مرة بعد جهد كبير، ويقابله في اللغات الغربية أفعال:

Découvrir (découverte) – descubrir (descubrimiento) – discover (discovery)

في الفرنسية والإنجليزية والإسبانية وكلها تفيد التعريف بشيء موجود لكنه غير معروف، وقد يعوض في الفرنسية ب explorer، وسنختار في حديثنا هذا التعريف الذي ينص على الكشف عن أراضي مجهولة بالنسبة للأوربيين وتم ارتيادها لأول مرة.

تعتبر اكتشاف الأرض ومكوناتها عملية مستمرة ودائمة ارتبطت بوجود الإنسان على الأرض، فهو دائم البحث والتوسيع لرقعة نفوذه وحركته منذ ظهوره وحتى الوقت الراهن. ومن الصعب أن نعتبر أن اكتشافات مرحلة ما أكثر أهمية من مثيلاتها في مرحلة أخرى، فكل واحدة مرتبطة بزمانها وأهميتها في وقت حصولها. ومع ذلك فتاريخ البشرية عرف فترات اكتشاف أكثر نشاطا من غيرها ومنها فترة الفنيقيين والإغريق والمصريين في العصر القديم[1] ومرحلة العصر الوسيط مع العرب المسلمين ومرحلة العصر الحديث الإسبانية-البرتغالية ومرحلة القرنين 18 و 19 م الإنجليزية-الفرنسية أساسا ومرحلة القرن العشرين بعد الحرب العالمية الثانية التي انصبت على الفضاء وأعماق البحار والقطب الجنوبي. وما تزال الاكتشافات متواصلة حتى الوقت الراهن وتهم الفضاء وبعض المغارات والأودية تحت-أرضية وأعماق البحار. وتهمنا ضمن هذه الاكتشافات تلك التي حدثت في العصر الحديث.

قادت هذه الاكتشافات الدولتان الإيبيريتان إسبانيا والبرتغال وامتدت على القرنين 15 و 16م، فما هي دوافعها؟ وما هي مراحلها؟ وما هي آثارها؟

---

[1] - البوزيدي سعيد، صورة المغرب القديم عند الحضارات الشرقية من خلال الرحلات الجغرافية، مجلة المناهل، عدد 66-67، 2002، ص.(215-236).

1- دوافع الاكتشافات وأسبابها

تداخلت عوامل عديدة لتدفع إلى الاكتشافات الجغرافية ويمكن لغايات بيداغوجية أن نجزئها ونميز بين العناصر التالية:

"بعد الاستيلاء على سبتة حافظ الأمير هنري على سفن مسلحة ضد المسلمين في البحر لأن رغبته كانت هي التعرف على المناطق التي توجد جنوب جزر الخالدات ورأس بوجدور، وكان هذا هو السبب الأول لمخططه.

أما السبب الثاني فهو العثور على شعوب مسيحية، وعلى موانئ آمنة يمكن أن تقتني المملكة منها بضائع كثيرة بأثمان منخفضة.

أما السبب الثالث فهو التأكد من أن قوة المسلمين بأرض إفريقيا أقوى بكثير مما هو شائع.

أما السبب الرابع هو الرغبة في الاتصال بأمراء مسيحيين ... (يعينونه) للقضاء على المسلمين بعد أن أمضى في محاربتهم 11 سنة.

أما السبب الخامس فهو رغبته الأكيدة في التبشير وإدخال أهالي هذه المناطق إلى المسيحية."

معرب عن Chrônica de guinée. E. De Zurara
ص. ص 41 - 42.

1-1- الدافع الاقتصادي:

منذ القرن 11م، عرفت أوربا الفيودالية انتعاشا اقتصاديا واضحا في إطار ما سمي بالنهضة الأولى، وكان من أهم مظاهره تجدد النشاط الاقتصادي بظهور مجموعة من المدن واستعادة أخرى لنشاطها في إيطاليا وفرنسا وألمانيا والأراضي المنخفضة (جنوة- البندقية- بيزا- ليون- مرسيليا- بروج- ميونيخ...)، ولم يقتصر الأمر على المبادلات الداخلية بل تعداه إلى التبادل الخارجي خاصة مع العالم الإسلامي الذي أصبح يزود أوربا بحاجياتها خاصة من مواد الرفه والترف الشرق أسيوية (حرير- توابل- بخور) والذهب الإفريقي، فنشطت المبادلات وازداد استهلاك النبلاء والملوك الجدد لهذه المواد لحد الإدمان وصار من الصعب الاستغناء عنها. وكانت المدن الإيطالية الوسيط الرئيسي في هذه العملية والمحتكر لكل العمليات، بحيث تجلب البضائع من شرق البحر المتوسط من المماليك وتوزعها على أوربا محققة أرباحا كبيرة من ذلك. لكن القرن 14م عرف أزمة سياسية عند المماليك فقلت البضائع المستوردة بينما بقي الطلب عليها مرتفعا فاستغلت المدن الإيطالية الوضع وشددت حصارها عليها وزادت في

الأسعار بشكل كبير محققة أرباحا ضخمة. وكان رد فعل أوربا الداخلية والغربية قويا إذ ارتفعت الأصوات مطالبة بالتخلص من الاحتكار والاستغلال الإيطالي فبدأ التفكير في البحث عن طريق يجنب الوساطتين الإسلامية والإيطالية.

وفي نفس الوقت وخاصة في بلد مثل البرتغال؛ حيث الأراضي ضيقة (91721كلم2) ولم تعد هناك فرصة للتوسع القاري (حاجز إسباني عن الأراضي الإسلامية) وحيث الإقطاعات صارت متوارثة، ضاقت الأرض على النبلاء فاحتاجوا إلى أراضي جديدة للتوسع لرفع مداخيلهم وضم أتباع جدد حتى يواجهوا الأزمة المالية الخانقة.

وعرف تدفق الذهب السوداني على أوربا؛ ومنذ منتصف القرن 14م، تراجعا كبيرا نتيجة ضعف المرينيين في المغرب وعدم قدرتهم على ضمان أمن القوافل في الصحراء وكبح جماح القبائل العربية النهابة مما قلل من عدد القوافل بفعل تغيير كثير منها طريقها نحو الشرق وبالضبط إلى جنوب تونس عبر ورغلة. وحاول الأوربيون حل المشكل بالعودة إلى استغلال المناجم المحلية في ألمانيا وفرنسا (أنهار البيريني والسيفن) لكن ذلك لم يحل الأزمة، فانتقل الاهتمام نحو الوصول المباشر إلى مناجمه في المناطق الحارة.

1409 للحصول على أوقية قديمة يجب دفع 50 جديدة
1417 للحصول على أوقية قديمة يجب دفع 250 جديدة
1435 للحصول على أوقية قديمة يجب دفع 700 جديدة
أحمد بوشرب : المخططات البرتغالية خلال القرن 15 و 16 من النهضة والتراكم. ص : 188

"الذهب، أيها الذهب، ما أروعك من مادة فأنت مصدر الغنى، وأنت الدافع وراء كل التصرفات الإنسانية، وإن لك من القوة ما يكفي لجلب الأرواح نحو الجنة ..."
كريستوف كولمبوس Christophe Colombs (1451 - 1506)

= كانت البورجوازية التجارية الناشئة والنبالة المتأزمة وراء انطلاق حركة الاكتشافات.

1-2- العامل الديني

لعبت الكنيسة دورا كبيرا في تاريخ أوربا منذ سقوط الإمبراطورية الرومانية وظهور النظام الفيودالي ودخول أوربا في حالة فراغ سياسي طويل، فصارت شريكا للنبلاء وحكما بينهم

وفرضت قبضتها على شؤون القارة. ومنذ قيام الإمبراطورية العثمانية وخاصة في بداية القرن 14م، واكتساحها للأناضول وشبه جزيرة البلقان وأوربا الشرقية وتهديدها لأوربا الوسطى، شعرت بخطر شديد يهدد وجودها ومعها المسيحية، فشجعت الملوك على المقاومة ودعمتهم وساندت حركة الاسترداد في شبه الجزيرة الإيبيرية وباركت اضطهاد وطرد المسلمين، وحاولت تطويق المسلمين عن طريق إشاعة الرغبة في التحالف مع مملكة مسيحية قوية مفترضة تحكم أرض الحبشة. فشجعت على البحث عن هذا الحليف وحصار المسلمين لذلك دعمت الحركة وأزالت العوائق من طريقها (مباركة المكتشفين وحل خلافات الدول المشاركة في توردیسیاس وغيرها).

= توسيع النفوذ وحصار المسلمين

1-3- العامل السياسي

شعر الملوك الأوربيون بخطر الإسلام يقترب من شرق أوربا فحاولوا تجنبه بالتوسع في الجنوب، واستفادوا من انتهاء المشاكل الكبرى داخل أوربا مثل حرب المائة سنة بين إنجلترا وفرنسا وحرب الاسترداد بالنسبة لإيبيريا. وعملت الدول الحديثة على توسيع نفوذها ومجالها خارج القارة العجوز والحصول على متنفس على البحر واستغلت ضعف ممالك شمال إفريقيا وحاولت احتلال المنطقة لمنع العثمانيين من الوصول إليها أولا.

= رغبة التوسع والتنافس مع العثمانيين.

1-4- عوامل مساعدة

توفرت للأوربيين في هذه الفترة مجموعة من التقنيات ساعدتهم على ارتياد البحار والتغلب على صعاب المحيطات أهمها:

- وفرة المعلومات الجغرافية: ترك العرب معلومات وافرة حول رحلاتهم البحرية وكتبوا كتبا جغرافية مهمة، كما كانت رحلة ماركو بولو إلى الصين مصدرا ملهما ومرشدا للرحالة. وقد وفرت هذه المصادر معلومات حول المناطق والبلدان والبحار وأكدت كروية الأرض.

- تطور فن الملاحة خاصة على يد ملوك البرتغال (هنري الملاح 1460-1494 وجون2 1455-1495م)، وقد انصب جهدهم على جمع الخرائط المعروفة وتطوير الاسطرلاب والبوصلة وآلة تسجيل المسافات (الكمال العربي) وآلات أخرى ثم تطوير السفن خاصة الكرافيلا ذات الخمسة أشرعة والعشر كلمترات في الساعة.

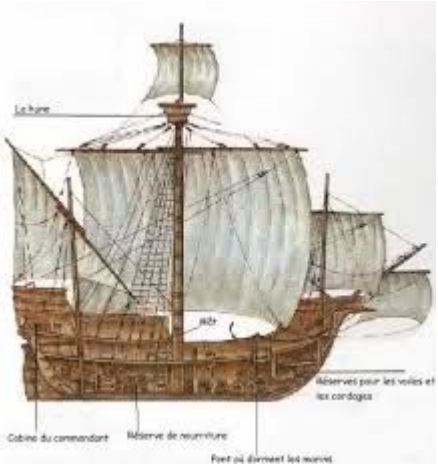

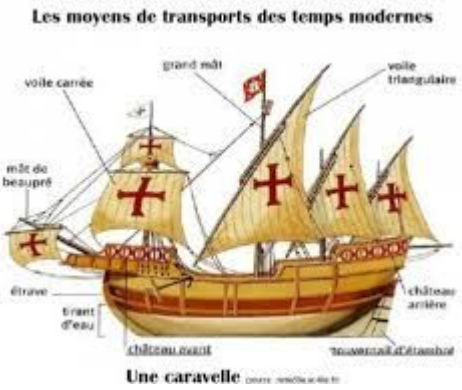

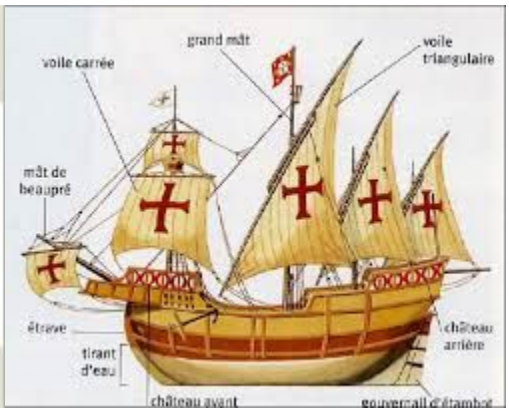

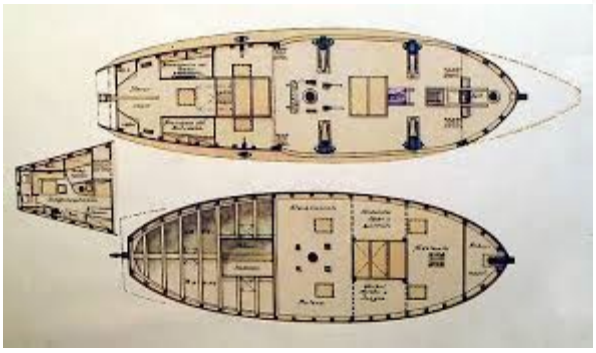

صور لسفينة الكرافيلا

- العامل النفسي: وجد أشخاص تغلبوا على الخوف من البحر والخرافات المنسوجة حوله (قوى شريرة في قاع المحيط تجذب البحارة إليها وتغرقهم) بدعم من الكنيسة (إرسال رهبان إلى المحيط الهندي قبل المستكشفين ومباركة السفن وأرواح البحارة قبل الانطلاق). ويعتبر هذا الأمر عنصرا محوريا في هذه العملية، إذ تبقى العناصر السابقة دون فعالية إذا لم يتوفر عنصر حب المغامرة والمخاطرة عند البحارة.

= **عوامل متنوعة ساهمت في تحقيق الاكتشافات.**

2- مراحل الاكتشافات

الاكتشافات الجغرافية الكبرى

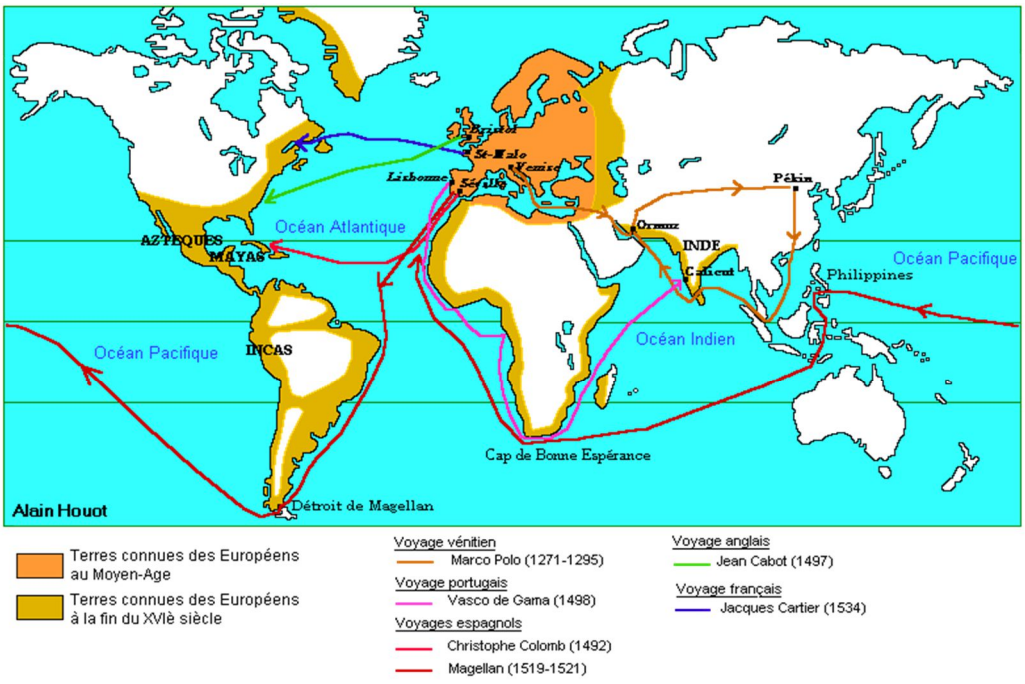

2-1- الاكتشافات البرتغالية

- احتلال سبتة 1415م
- رأس بوجدور 1416م
- الرأس الأخضر 1445م
- تجاوز خط الاستواء 1471م
- مصب الكونغو 1482م
- رأس الرجاء الصالح أو رأس العواصف (بارتولومي دياز) 1487م
- كالكوتا بالهند (فاسكو دي كاما) 8 ماي 1498م.
- البرازيل (كابرال) 1500م.

= سواحل إفريقيا الغربية والشرقية والوصول إلى الهند من الغرب واكتشاف البرازيل.

2-2- الاكتشافات الإسبانية

- وصول كريستوف كولمب (جنوي) إلى جزر الأنتي عام 1492، ونظم رحلات في نفس الاتجاه سنوات 1493 و 1498 و 1502، وفي 1504-1505 أثبت أمريكو فيسبوتشي أن ما اكتشفه أرض جديدة ونسبت إليه عام 1507.
- دوران ماجلان حول الأرض من ناحية الغرب مابين 1519-1522م

= **اكتشاف العالم الجديد والدوران حول الأرض**

2-3- اكتشافات فرنسية وإنجليزية

- اكتشاف السواحل الكندية على يد كارتيي جاك عامي 1534 و 1540
- وصول جون كابو الجنوي خادم ملك إنجلترا هنري السابع إلى الساحل الشرقي لأمريكا الشمالية.

= **التعرف على سواحل أمريكا الشمالية**

3- نتائج الإكتشافات

تنوعت نتائج الاكتشافات وشملت جوانب عديدة من حياة أوربا والعالم وسنقتصر على ذكر تلك الأكثر أهمية وتأثيرا.

3-1- أنجازات علمية

- إثبات كروية الأرض وخروجها من نطاق الظن إلى مجال اليقين بعد رحلة ماجلان.

- اكتشاف قارة جديدة ومجموعة من الجزر والمناطق مما أفرز تقسيما جديدا للعالم حيث صرنا نتكلم عن عالم قديم وعالم جديد.

- الحصول على معلومات مناخية مهمة خاصة عن الرياح الدائمة وعلى رأسها الرياح التجارية.

- تطور في علم المحيطات والنبات والحيوان.

- تطور علم الجغرافيا والخرائط خاصة حيث رسمت خرائط بدقة كبيرة.

- التعرف على حضارات جديدة وإنجازاتها في مختلف الميادين.

نماذج من خرائط عصر الاكتشافات

3-2- تغيرات دينية

ساهمت الاكتشافات في تحول المسيحية وخاصة الكاثوليكية إلى ديانة عالمية واكتسابها أتباعا جددا ومزاحمة الإسلام في معاقله، وعوضت ما فقدته جراء التوسعات االعثمانية والإصلاح الديني. وفي نفس الوقت طرحت تحديات تشريعية جديدة تمثلت في إيجاد حل لاستهلاك واستعمال المنتوجات الغريبة التي وصلت إلى أوربا مما حتم إصدار فتاوى بشأنها (سكر- تبغ- بطاطس- عبيد- أنشطة بورجوازية وطرق تعاملها...).

3-3- انطلاق الحركة الاستعمارية

ما إن تحققت الاكتشافات الأولى حتى بدأت الدولتان الرائدتان؛ البرتغال وإسبانيا، في العمل على احتكار ثمار نجاحها. وهكذا وفي سنة 1500م أرسل الأمير كابرال إلى السواحل الإفريقية

والهند لتأكيد النفوذ البرتغالي. ثم تبعه فاسكو دي كاما سنة 1502م فترك حاميات في المواقع المكتشفة، ورسخ النفوذ أكثر الفونسو ألبوكيرك سنة 1504م وعين نائبا للملك في الهند، وبعدها وسع النفوذ في الشرق ووصل إلى الهند الصينية والصين وكوفئ بتعيينه على رأس كل المراكز البرتغالية المطلة على المحيط الهندي. وحتى يضمن السيطرة البرتغالية واحتكارهم فقد منع التجار غير البرتغاليين من المتاجرة في المنطقة وخاصة الجزء الغربي منها، وبذلك بدأت السيطرة البرتغالية. وفي نفس الوقت بدأ التوسع في البرازيل واستغلال أراضيها على يد النبلاء.

لم تقصر إسبانيا من جانبها، فبعد النجاحات الأولى لكريستوف كولومب سارع الملكان الكاثولكيان إلى تأكيد سيطرتهما على غرب المحيط باستصدار وثيقة من البابا ألكسندر الرابع تثبت سلطتهما على الأراضي الواقعة غرب جزر الأصور في ماي 1493م. وتوسعوا في القارة الأمريكية خاصة الوسطى والجنوبية واحتلوا المكسيك سنة 1519 والبيرو عام 1532م فصارت لهم إمبراطورية شاسعة في هذه البلاد.

لم تمر الاكتشافات دون صراع بين القوى الأوربية، فبمجرد ما حصلت إسبانيا على الأراضي الواقعة غرب الأصور بمباركة البابا احتجت البرتغال وطالبت بنصيبها فسوي الخلاف بمعاهدة توردیسیاس Tordisillas في 7 يوليوز 1494م التي قسمت الأراضي بين الطرفين بخط وهمي يعبر المحيط الأطلنتي يعطي للأسبان ما يقع غربه عدا البرازيل وللبرتغال ما يقع شرقه، ووقع الطرفان أيضا اتفاقية سرقسطة سنة 1529م والتي تمنح الفلبين للبرتغال لكنهم أهملوها فأخذها الإسبان.

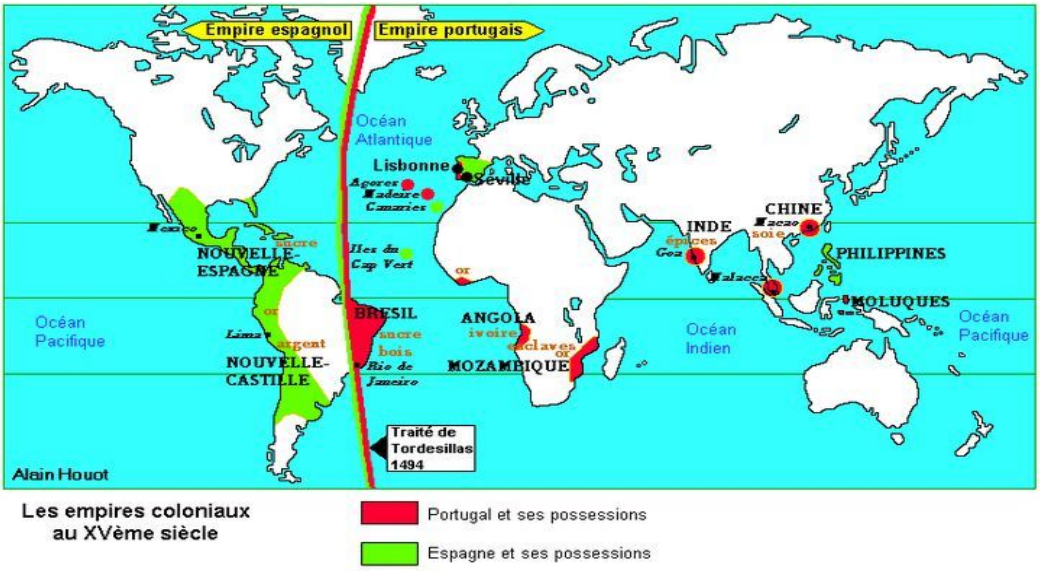

لم ينحصر الصراع بين إسبانيا والبرتغال، بل دخلته قوى أخرى خاصة إنجلترا وفرنسا اللتان احتجتا على التقسيم وسارعتا إلى المنافسة خاصة في أمريكا الشمالية والبرازيل. وقد قال الملك الفرنسي فرانسوا الأول بهذا الصدد قولة مشهورة بهذه المناسبة جاء فيها:

"إني أريد أن أتعرف على بنود وصية آدم التي تستثنيني من تقسيم العالم، ألا تضيئني الشمس كما تضيء الآخرين؟ إن حق التجارة وتبادل البضائع حق طبيعي ومشروع من بين كل الحقوق..."

3-4- التحول الاقتصادي

انتقل الثقل التجاري من البحر المتوسط إلى المحيطات وخاصة المحيط الأطلنتي الذي صار شريان العالم التجاري بين قارات أوربا وإفريقيا وأمريكا. وظهرت مراكز تجارية جديدة خاصة أنفرس ولشبونة وإشبيلية، وارتفع حجم البضائع المتبادلة وزادت أصنافها وقيمتها فحققت التجارة أرباحا مهمة خاصة وأن الأسعار شهدت ارتفاعا كبيرا. ونمت فئة بورجوازية نشيطة فرضت هيمنتها على الصناعة والمال وطورت وسائل الأداء بظهور الصكوك وسندات الدول وبطاقات الأمر بالدفع.

خاتمة

يبدو ان الاكتشافات لم تكن حركة أوربية فقط، بل هي حركة عالمية ربطت بين مختلف نقطه وشبكت المصالح فيه، لكنها أعطت لأوربا انطلاقة ريادة العالم والهيمنة عليه، وشكلت بذلك لحظة تحول في ميزان القوة في العالم مما يثبت أهميتها الكبيرة.

%